كيف يحكم الكبار هذا العالم؟

قوة الاقتصاد هى السلاح الأول الذى يحكم به الكبار هذا العالم..

وقوة الاقتصاد ليس معناها مجرد الغنى أو مجرد الثروة، فقد تؤتى الثروات لحكومات متخلفة، فينفقها الحاكم بددًا وهباءً فى أحلام فارغة.. كما أنفق القذافى ثروة ليبيا فى معارك إيرلندا، ونيكاراجوا، ونيوكاليدونيا، وتشاد، والحبشة، وأنجولا، والفيلبين، ليقال عنه إنه الثائر العالمى الذى يغير التاريخ، وقد فعل عبد الناصر مثلما فعل تلميذه بتبديد ثروة مصر فى حروب الكونغو واليمن وغيرها.

وإنما الاقتصاد يصبح قوة حاكمة حينما تقترن الثروة بالإنتاج، وبالتخطيط والتدبير، وبحسن السياسة وبعد النظر، وبالدهاء وبالذكاء فى التعامل مع الظروف والمتغيرات، وكمثال لذلك ما فعله الكبار لمواجهة حرب البترول التى أعلنها عليهم العرب، والتى ارتفعت بها الأسعار إلى ما فوق الأربعين دولارًا للبرميل.. لم يرد الكبار بالشعارات أو الهتافات، ولم يردوا بالقنابل والبارود،

وإنما بالقانون.. والقانون هنا هو قانون العرض والطلب، وذلك بزيادة المخزون من البترول، وبإنتاج المزيد عن طريق حقول بترول بحر الشمال، وفى سنوات معدودة تم إغراق السوق بالنفط الخام، وتدهورت الأسعار من أربعين إلى خمس دولارات للبرميل.. وبلغت خسائر دول كبرى منتجة للبترول مثل روسيا سبعة آلاف مليون دولار سنويًا. وفى مجموع الدول العربية أضعاف هذا المبلغ، وتوقفت مشاريع النمو فى هذه البلاد، وتحول بعضها إلى تسول القروض بالربا من أمريكا وأوروبا، وإلى طلب المعونات العاجلة من البنك الدولى، وتحول السادة الأغنياء إلى شحاذين.. حدث كل ذلك بضربة معلم، وبعمل اقتصادى مجرد.

ومثال ذلك حرب القمح التى أعلنتها أمريكا على روسيا.. وحرب الإنتاج التى أعلنتها اليابان على أوربا وأمريكا، وكانت نتيجتها أن ارتفع الين اليابانى ليضرب الدولار فى السوق.

وقوة الاقتصاد تعنى الصناعة المتطورة، وتعنى الزراعة المتطورة، وتعنى التعليم المتطور، والجامعات المجهزة بالمعامل والمختبرات، وتعنى الميزانيات المرصودة للبحوث والاختراعات.

وقوة الاقتصاد تعنى التسليح الجيد (المكوك الأمريكى الجديد سوف تبلغ تكاليف صنعه ثلاثة آلاف مليون دولار.. أى ميزانية دولة).

ولكنها لا تعنى تبديد هذا التسليح فى حروب فارغة ومغامرات

صبيانية، وهى أيضًا لا تعنى تبديد المال فى الترف والمظاهر، كما أنفق الإمبراطور بوكاسا إمبراطور أفريقيا الوسطى ثروة بلده ليصنع لنفسه عرشًا من الذهب مطعمًا بالجواهر.

والقوة الاقتصادية لا تأتى للدول عن ميراث، ولا تنزل عليها من السماء، ولكنها تأتى بالعمل والكدح والعرق، والإنتاج المتفوق المتميز الذى يغرى كل الأطراف بالثراء.. والعمل بدوره ثمرة للأخلاقيات الجادة، والانتماء، والمثابرة، والإصرار.

وقد أخطأ كارل ماركس حينما تصور أن التأميم وملكية الدولة لوسائل الإنتاج هى السبيل إلى زيادة الإنتاج.. وما حدث فى جميع البلدان الاشتراكية كان العكس، فقد هبط الإنتاج فى الكم والكيف، وسادت اللامبالاة، والسلبية، والبيروقراطية، والكسل، والاتكال على الدولة فى كل شىء، بسبب غياب حافز الربح، وتراجع العامل الفردى فى الابتكار والتجويد.

وثبت بالتجربة التاريخية أن الاقتصاد الحر والمناخ الديمقراطى هما السبيلان الوحيدان إلى زيادة الإنتاج وتحسينه كمًا وكيفًا، وقد أدى ذلك إلى تراجع الدول الشيوعية عن منهجها الاشتراكى، ولجوئها إلى الانفتاح، وإلى تشجيع القطاع الخاص، وإلى نقدها للفكر الماركسى، ونعته بأنه فكر رجعى معوق.

وقد رأينا أمام أعيننا حرب الخليج تتحول بعد ست سنوات من القتال إلى معادلة اقتصادية صريحة، هى: أى اقتصاد من

الاثنين سوف يصمد للاستنزاف.. اقتصاد العراق أم اقتصاد إيران ؟!

ومن وراء العراق وإيران.. أمريكا وروسيا تمدان الاثنين بالسلاح، وبقدر وبحساب، حتى لا يتفوق طرف على طرف.. وحتى تظل الحرب نزيفًا لا حسم فيه.. وإنهاكًا محسوبًا لموارد العرب، وتدميرًا للعتاد الحربى الذى يشتريه العرب بثروتهم الوحيدة.. البترول.

إنها مرة أخرى لعبة اقتصادية مكشوفة لإفقار المنطقة، ثم ربطها بحبال التبعية للغرب وللشرق إلى الأبد.

وبرغم أنها لعبة مكشوفة وواضحة لكل ذى عينين فإنها ظلت مستمرة بالقصور الذاتى.. وبحكم التخلف الشامل للمنطقة حكامًا ومحكومين.. ألا تساهم سوريا وليبيا فى كسر الجبهة العربية بمناصرة إيران على العراق ؟! أهو تخلف فقط أم خيانة من هؤلاء الذين يزعمون أنهم جبهة الصمود والتصدى ؟! وتصدٍّ لِمَنْ ؟! إنهم يقولون إنهم جبهة التصدى للعدو الإسرائيلى.. ولكن لا أحد منهم قد ألقى حجرًا على إسرائيل، بل كلاهما مع إسرائيل فى نفس الخندق.. وكلاهما يعملان وفق المخطط الإسرائيلى.. ألا يعمل البعث السورى منذ أحد عشر عامًا على إثارة الفتن فى لبنان للإيقاع بين المسيحى والمسيحى، وبين المسلم والمسلم، وبين الفلسطينى والفلسطينى، حتى إذا

أغرقوا لبنان فى الدم دخلوا إليه بزعم إنقاذه ؟! وماذا يخدم هذا المخطط سوى إسرائيل ومصالح إسرائيل ؟! ألم يجتمعوا ثلاثتهم: سوريا، وليبيا، وإسرائيل، على هدف واحد هو تسليح إيران وإمدادها بأدوات الحرب.. والفضيحة الأخيرة مازالت تتداولها الصحف، وهى صفقة السلاح المهرب من أمريكا إلى إيران عن طريق وسطاء إسرائيليين.. صفقة بألف مليون دولار.. وهذا هو الصمود والتصدى.

إننا لم نسمع أن حافظ الأسد أطلق رصاصة واحدة على تل أبيب، ولكنا رأيناه يضرب مدينة حماة بالطائرات والمدافع، ويقتل الألوف من مواطنيه السوريين.. ومن قبل ذلك ومن بعد ذلك لم يكن لمخابرات البعث من عمل سوى سجن واعتقال وإعدام كل سورى يضعه سوء حظه فى طريقها.

والظاهر أن اللعبة بين الصغار تجرى بمنطق آخر.. ليس منطق القوة الاقتصادية، ولا بمنطق من الأكثر تقدمًا، ومن الأكثر مواردَ.. بل من الأكثر غدرًا ومن الأكثر لؤمًا ومن الأكثر مكرًا.

وهذا هو الطبيعى فى المعارك التى تجرى فى بدروم الخدم.. حيث يخدم الصغار مخططات السادة الكبار على طريقتهم هم كخدم.. يأتيهم المدد تسللا من فوق، من السادة.. تأتيهم طائرات لم يصنعوها، ومدافع لم يخترعوها.. ليقوموا بأدوار مرسومة، ويقبضوا مبالغ معلومة.. وكل شىء يجرى فى الخفاء.. وفى الظاهر

شعارات وهتافات وصمود وتصدٍّ وعنترية فارغة.

وهناك من الحكام العرب من يعرف ويسكت اتقاء لشر هذا أو شر ذاك، وينسى أن السفينة سوف تغرق بالكل.. بل قد نراه يدفع لهذا ويدفع لذاك ليشترى لنفسه أمانًا مؤقتًا، وما يشترى إلا هلاكًا محققًا.

والتمثيلية مستمرة برغم أنها أصبحت مُعادَة ومُبتذَلة.. وإذاعات جبهة الصمود والتصدى ما زالت تدوى مرددة نفس الكلام الفارغ.

ويبدو أنها لن تسكت حتى يُصاب أصحابها بالسكتة.

وقد تعب السياسيون من كثرة الفتاوى.

ولا حاجة إلى كثرة من الفتاوى.

فليس هناك إلا سبيل واحد للخروج هو القوة الاقتصادية لنتعامل بها مع عالم الأقوياء.. ولا قوة اقتصادية لنا إلا باجتماعنا.. فمواردنا البشرية، ومواردنا المالية مجتمعة كفيلة بأن تجعل لنا ثقلًا له وزنه وله خطره..

لقد استطاعت دول أوروبا أن تُكَوِّنَ لها سوقًا أوربية مشتركة، واستطاع لصوص المافيا أن تكون لهم دولة.. واليهود المشردون فى قارات العالم اجتمعت كلمتهم، وهم يتخاطبون بأكثر من لغة، وينتمون إلى أكثر من قومية.. ونحن أهل اللغة الواحدة، والدين

الواحد، والمصلحة الواحدة، مازلنا يقتل بعضنا بعضًا، ونتشاتم، ونتقاذف الاتهامات، ويحاول كل طرف أن يصفى الآخر جسديًا، وأكثر صفحات جرائدنا مهاترات، وأكثر إذاعاتنا سباب.

وإذا كان نصف الطريق إلى إصلاح أنفسنا أن نعرف أخطاءنا فقد عرفناها، وقتلناها بحثًا ومعرفة..

ولكن بقى النصف الآخر الصعب: أن نتغلب على الإقليمية الضيقة، وعلى المصلحة العاجلة، وعلى كبرياء الرياسة عند أهل الرياسة، وهوى الحكم عند أهل الحكم، وعلى الشخصانية فى النظرة عند الأشخاص الذين بيدهم مقاليد الأمور.. ويبدو أنها أشياء بالمقياس الحضارى تحتاج إلى نضج، وإلى معاناة وابتلاء، وإلى وقت.

ولم يتوحد الشمال الأمريكى مع الجنوب إلا بعد حروب ودم وقتل.

ولم تتوحد أوربا بشكلها الحالى إلا بعد أن اكتوت بحربين عالميتين.

هذا غير ما كان بين إنجلترا وفرنسا من حروب المائة عام فى التاريخ البعيد.. وقراءة التاريخ لا تبعث على التفاؤل إلا إذا كان الله يدخر لنا رحمة كما فعل بأسلافنا.. أليس هو القائل لنبيه: ﴿لو أنفقت ما فى الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ (٦٣ - الأنفال).

فلعله يؤلف بين قلوبنا برحمته بعد أن عجزت عن تأليفها حكمة الحكماء.. أو لعله يتركنا للمحن والكوارث لتؤلف بيننا بوشائج الدم والألم والعذاب.. وهو أمر يطول بطول الحقب التاريخية.

ولكن يقينًا لن تتم الوحدة بالمقالات، أو بالخطب، أو بالشعارات، أو التمنيات والأغانى الوطنية، وإنما هى مرهونة بالتحضر والترقى الأخلاقى، والقناعة العميقة بمقتضيات الضرورة.

وأرجو ألا تأتى لنا ونحن نعانى النزع الأخير.